الوجه الآخر للأمير عبد القادر من خلال كتاب ذكرى العاقل
خرواع توفيق ، المجلد الثاني عشـر، العدد 2، ماي 2021،
ص ص 147-154

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الوجه الآخر للأمير عبد القادر من خلال كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل

The other face of the emir abdel Kader through the book
« Diqra Al Aaqil Wa Tnbih Al Ghafil »
« Remembrance Of The Wise And Warning Of The Inattentive »

توفيق خرواع (*)

جامعة سيدي بلعباس، الجزائر

kherouatoufik22@gmail.com

تاريخ الإيداع: **05** /2021/01 تاريخ القبول: 2021/05/25 تاريخ النشر: 2021/05/30

الملخص:

نحن لا نتكلم في هذا المقال عن حياة الأمير عبد القادر الجزائري الحربية والسياسية، ذلك أن هذه الأخيرة معروفة عند العام والخاص، بل إنها تمثل أيقونة عالمية في حياة الكفاح والتفاني من أجل خدمة الوطن والحرية والإنسانية. بل إن ما يهمنا في هذا المقال هو الجانب الآخر من شخصية الأمير عبد القادر ، أي ذلك الصيت الأدبي والفكري الذي يغفله في شخصه الكثير من الناس ، فقد كان مفكرا وأديبا وشاعرا ومتصوفا، وما خلفه لنا من رسائل وكتابات في بلاد المنفى (سواء في فرنسا أو في بلاد المشرق) لخير دليل على ذلك.إن الكتاب الذي بين أيدينا اليوم ما هو إلا دليل بسيط على العطاء الفكري للأمير عبد القادر الجزائري ، فقد كتب في مدينة بروسة التركية رسالة مختصرة تحتوي على فوائدة جمة في مبادئ الدين والأخلاق والتعليم والتربية، عرضها لنا بروح إسلامية وبطرح فلسفي يحاكي به تلك التي كتبها أعلام الفكر الإسلامي في العصور السابقة.

الكلمات الدالة:

الأمير عبد القادر الجزائري ، غوستاف دوقا ، الأدب ، الأخلاق ، المنطق.

Abstract:

In this article, we are not talking about the war and political life of Emir Abdel Kader the Algerian or as he is called Al-Jazaery, because this latter is known to the public and the private, but rather it represents a global icon in the life of struggle and dedication to serve the nation, freedom and humanity. Rather, what interests us in this article is the other side of the Emir Abdul Qadir's personality, that is, the literary and intellectual reputation that many people overlook in his person. He was a

(*) المؤلف المرسل: **خرواع توفيق** kherouatoufik22@gmail.com

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

thinker, writer, poet, and mystic, and what he left for us in terms of letters and writings in countries of exile (whether in France or in the countries of the East) for the best evidence of that.The book that we have today is nothing but a simple evidence of the intellectual generosity of Emir Abdel Kader Al-Jazaery. He wrote in the Turkish city of Prusa a brief letter containing great benefits in the principles of religion, morals and education, which he presented to us in an Islamic spirit and with a philosophical proposition that imitates those written in prominent thought by Islamic figures in previous eras.

Key Words:
Emir Abdel Kadir Al,Jazaery , Gustave Duke , Literature , Ethics , Logic.

****

مقدمة:

لقد شكل تاريخ الجزائر الواسع على مر الزمن عاملا كبيرا في تطور المنطقة حضاريا وثقافيا، بل وحتى ساهم في تنوع فكر الإنسان الذي يعيش في هذا المكان، ونذكر هنا ما خلفته فرنسا في الجزائر خلال فترة احتلالها من نمط متباين في العيش والتفكير والتعامل مع الآخر.إن هذه العلاقة الجوهرية التي تقاسمتها الجزائر وفرنسا خلال فترة من الزمن يمكنها أن تفتح للباحث الجزائري اليوم موضوعا خصبا من الحوار السياسي والثقافي والشراكة المتباينة، خاصة وإذا علمنا بأن كل ما يتعلق بتاريخ المنطقة (أي نحن لا نقصد الجزائر فقط، بل تاريخ منطقة شمال إفريقيا)، هو مخزن في رفوف المؤسسات الفرنسية من أرشيف وصور ووثائق تاريخية.

ولعل هذا الإرث الحضاري الذي تمتلكه فرنسا عن تاريخ منطقة شمال إفريقيا، هو ما يعجل بضرورة فتح باب للحوار الحضاري والثقافي البناء الذي قد يزيح عنا عقدة الفترة الاستعمارية، ويجعلنا نتغلب على التحديات الراهنة والدفع بعجلة التنمية الاقتصادية نحو الأمام. من ذلك الأرشيف القديم ما تمتلكه فرنسا عن حياة مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة من خلال شخص الأمير عبد القادر بن محي الدين الشريف، خاصة فيما خلفه لنا من كتابات فكرية وأدبية ودينية.

إن ترجمة كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" هو بمثابة العثور على حلقة ضائعة من تاريخ الجزائر الحديث، فهو يصف لنا هذه الشخصية العالمية من كونه رجل حرب ومقاومة، إلى كونه رجل دين وأدب وتصوف. وبالتالي فإن هذه الترجمة قد تخلصنا من عقدة العداء التي

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

أصبحت تلازم العقل الجزائري، وحقوله المعرفية المختلفة. كما أنها تساهم في اكتساب خبرات الشعوب، وبناء ضمائر المعرفة العالمية، خاصة ونحن الآن في أمس الحاجة إليها.

وحسب رأينا، فإن بوادر هذا الالتقاء قد تجسد على أرض الواقع باللقاء الفرنسي الجزائري، أين تم ترجمة كتاب الأمير عبد القادر من طرف الكاتب الفرنسي غوستاف دوقا، وهي بمثابة رسالة لالتقاء الحضارتين في جو من نشر روح التسامح والتفاهم والحوار.لقد ساهمت هذه الترجمة بشكل كبير في ظهور بوادر التقاء الثقافتين الفرنسية والجزائرية وخروجهما إلى بر الأمان، وقد استيقن العقل العربي حينها، والجزائري على وجه الخصوص، أن بناء المستقبل لا يكون إلا بواسطة التسامح مع الماضي، ونحن لا نقصد التسامح الذي ينسينا آلام وويلات المستعمر الغاشم، إنما هو ذلك التسامح الذي نتوخى من خلاله بناء الذات، وشدّ الصلة بالآخر البعيد.قبل أن نتطرق إلى حيثيات هذا الكتاب ابتداء من أصله الأول العربي إلى ترجمته الفرنسية، لابد لنا أن نقف عند بعض ومضات الأمير عبد القادر الشخصية، وذلك بذكر حياته ونشأته باختصار شديد، آملين ألا نقصر في حق هذا الشخص العظيم الذي قدم النفس والنفيس في سبيل إعلاء راية الوطن الجزائري.

1- محطات في حياة الأمير عبد القادر الجزائري:

لقد عاش الأمير عبد القادر الجزائري حياة مليئة بالأحداث والمواقف المختلفة، وقد كان لذلك أثر بالغ في تكوين شخصيته العالمية، فإذا نظرنا إليه من زاوية السياسة والحكم نجده قد أسس دولة حديثة بكل ما تقتضيه الكلمة من معنى، وإذا نظرنا إليه من زاوية الجهاد والقيادة فقد كان القائد الأمثل الذي أرعب الجيوش الفرنسية لمدة لا تقل عن سبعة عشر سنة، أما إذا نظرنا إليه من زاوية الأدب والفكر فنجده قد ساح وجال في الكتابة والإبداع.

وإذا كان موضوع مقالنا هذا منحصرا على جانب الإبداع والفلسفة والفكر من خلال كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، فإن هذا لا يمنعنا من إطلالة موجزة في حق هذا الشخص العظيم عن نشأته الدينية والفكرية.مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي 19م، وبالضبط في سنة 1808م ولد الأمير عبد القادر الجزائري في قرية القيطنة الواقعة على الجانب الأيسر لوادي الحمام، وعلى بعد حوالي 20كلم من مدينة معسكر الغربية. [1] وحسب الرواية التي ذكرها هنري تشرشل فإن تاريخ موله يعود إلى سنة 1807م في شهر ماي، وبالضبط في منطقة غريس الواقعة في الجنوب الشرقي من إقليم وهران. [2]

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

نشأ الأمير في كنف أسرة دينية محافظة، ذات حسب ونسب شريف، فقد تلقى حفظ القرآن الكريم على يد أبيه الفقيه محي الدين وهو دون العشر سنوات، ثم تعلم مبادئ العلوم اللغوية والإسلامية، وتدرب كذلك على الفروسية واستعمال الأسلحة المختلفة كالرمح والسيف.وفي مشارف شبابه انتقل مع والده إلى منطقة غريس ثم إلى مدينة وهران أين مكث فيها مدة من الزمن اغتنمها في مجالسة أهل العلم والتصوف، فاستفاد كثيرا من علمهم وأدبهم وهو آنذاك لا يزال غلاما مراهقا.

وبعد أن أتم الأمير حفظ القرآن الكريم وتلقيه لمبادئ اللغة العربية والدين الإسلامي، أرسله والده للالتحاق بجامع الزيتونة في تونس أين وجد جوا علميا آخرا مليئا بالهمة وطلب العلم وتعلم مبادئ الرجولة والأخلاق. غير أنه لم ينس تلك الطبيعة التي نشأ في أحضانها والبيئة الإسلامية التي نشأ فيها فجعل لها الدور الأول في إستراتيجيته العسكرية والسياسية عندما استلم حكم البلاد وقيادة المقاومة.

2- تقديم كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

يحاول الكاتب الفرنسي غوستاف دوقا * من خلال ترجمته لهذا الكتاب أن يُعرّف الآخر على شخصية يرى بأنها تستحق كل الاهتمام والتقدير، وذلك من خلال طرحه المنطقي لقراءة في حياة الأمير عبد القادر ومسيرته الفكرية والدينية. وفي حقيقة الأمر فإن أصل هذا الكتاب هو عبارة عن بحث فلسفي كتبه الأمير عبد القادر عند تواجده في مدينة بروسة التركية وذلك بطلب من الجمعية الآسيوية بباريس، وقد أتم تأليفها يوم الاثنين 14 رمضان سنة 1271 هـ/1855م. [3] إن شخصية الأمير عبد القادر المفعمة بتعاليم الدين الإسلامي وبمبادئ الأخلاق والتصوف والفكر الرصين، جعلته يُقبِل على طرح ديني فلسفي من خلال مؤلفه الموسوم بـ: "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" ، وهي في الحقيقة رسالة لا تتعدى الأربعين صفحة قد بوبها في ثلاثة أبواب ومقدمة وخاتمة.أما المقدمة فقد حثّ فيها على النظر والتفكر وذمّ التقليد.

في الباب الأول فقد نوه فيه الأمير عبد القادر إلى فضل العلم والعلماء ومدى تأثيرهم في بناء شخصية المسلم الثقافية والاجتماعية، ثم تكلم عن دور العقل في إدراك العلوم، ومدى خصوصيته عن باقي الحواس الإدراكية، فإذا اعتدل في الإنسان (أي العقل) يكون إنسانا كاملا، ثم ذكر أقسام العلم إلى محمود ومذموم.أما في الباب الثاني فقد تطرق إلى جملة من القضايا العامة التي تتعلق بالدين والأخلاق، وفي مقدمتها حديث عن العلم الشرعي وإثبات النبوة التي هي منبع العلوم الشرعية.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

وفي الباب الثالث لجأ إلى الطرح الفلسفي عند حديثه عن فضل الكتابة والعلوم، ثم الكلام عن كتابات الأمم، وبيان حروف الكتابة العربية، وخاتمة في احتياج الناس إلى التصنيف وما يتعلق به.

من الذين علّقوا على هذه الرسالة بشكل من الوضوح والبيان نجد عمار طالبي الذي ذكر بأن « من أهم مباحث هذه الرسالة مبحث النبوة ، التي هي مصدر آخر من مصادر المعرفة التي تتجاوز طور العقل، كما يتجاوز العقل مجرد الحس. ويبدو أنه يعنى بقراءة ابن سينا الذي رفع من شأنه ووصفه بأنه ذو عقل فائق. كما أنه أثنى على العلماء الفرنسيين الذين يعنون عناية شديدة بالعلم العملي التطبيقي ...كما أشار أيضا إلى أهمية علم القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع. وهو يذهب إلى أن العلوم العقلية لا تناقض العلم الشرعي، ولا يرضى كذلك عن التقليد، ويدعو إلى التجديد. وأن أصل الديانات السماوية عنده واحد، ويرى بأن الناس لو استمعوا له لصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا. كما ذكر عدة مرات الفلاسفة القدماء ووصف أرسطو بكبير حكماء الخليقة. كما أثنى بخير على نابليون الثالث ووصفه بأنه أعلى الملوك الإفرنجية همة، وأبعدهم صيتا، وأنداهم يدا، وأطولهم سيفا». [4]

إن هذه الرسالة التي كتبها الأمير عبد القادر الجزائري تحمل بين طياتها مواضيع مختلفة ومتشعبة، وفي نفس الوقت مشبعة بروح الفلسفة الإسلامية كتلك التي كتبها علماء الإسلام في القرون الأولى من الهجرة.وفي هذا الصدد يذكر أبو القاسم سعد الله بأن هذا الكتاب ، أي ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، « فإنه تغلب عليه روح النقل، فهو مليء بالنقل الحرفي من إحياء علوم الدين للغزالي »[5]. أما الكاتب رابح بونار فهو لا يأبه لذلك، ويبين ما لهذا الكتاب من أهمية وفائدة علمية ومعرفية، فيقول : « إن رسالة الأمير هذه هي قبسة فكر يحاول الأمير أن ينازل بها فكرا ناضجا بما امتصه من أبحاث الإمام الغزالي وابن سينا وابن عربي وغيرهم، وقد صاغها بأسلوب واضح، وبترتيب متناسق، فكانت درة في الأدب النثري بالجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي، ترفع من إنتاجنا الفكري وتسبغ عليه هالة من الجلال، وتستحق منا كل عناية واهتمام »[6].

إن هذا الطرح هو نفسه الذي أشار إليه الأمير عبد القادر في مقدمة رسالته حين تكلم بكل تواضع واستحياء عن المكانة التي وضع فيها، أي مكانة العلماء والعظماء والمثقفين. في حين

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

يذكر بأن هذه الرسالة ما هي إلا محاولة منه للتشبه بخصال ومناقب السلف الصالح أمثال أبو حامد الغزالي، وابن خلدون، وأبو بكر الرازي، وغيرهم.

ومما جاء في ذلك قوله: « أمّا بعد ، فإنه بلغني أن علماء باريز (أي باريس عاصمة فرنسا)وفقهم العليم الحكيم العزيز، كتبوا اسمي في دفتر العلماء، ونظموني في سلك العظماء، فاهتززت لذلك فرحًا ثم اغتممت ترحًا، فرحت من حيث ستر الله علي، حتى نظر عباده بحسن الظن إليّ، واهتممت من كون العلماء ، استسمنوا ذا ورم ونفخوا في غير ضرم، ثم أشار علي بعض المحبين منهم، بإرسال بعض الرسائل إليهم، فكتبت هذه العجالة للتشبه بالعلماء الأعلام .ورميت سهمي بين السهام.

فتشبهوا إن لم تكونوا منهم ... إن التشبه بالكرام رباح»[7]

إن هذا الأسلوب المتواضع في الكتابة لا يقوم به إلا من كان له فكر واسع، وعطاء جلي، كذلك الذي نجده عند علماء الإسلام في القرون الأولى من الإسلام أمثال ابن سينا والغزالي وابن رشد والبكري وغيرهم. ولعل هذا السبب هو ما جعل الغرب يعجبون بكتابات الأمير عبد القادر ويقبلون على ترجمتها ودراستها بكل شغف وانبهار.

3- ترجمة كتاب الأمير عبد القادر لغوستاف دوقا:

في سنة 1858 قام المستشرق الفرنسي غوستاف دوقا بترجمة رسالة ذكرى العاقل وتنبيه الغافل التي كتبها الأمير عبد القادر الجزائري سنة 1852، وقد كانت هذه الترجمة للكاتب الفرنسي بمثابة اكتشاف كبير لشخصية الأمير، فقد وجد فيه إنسانا مفكرا وأديبا، متشبعا بتعاليم الدين الإسلامي من جهة، وعلى اطلاع واسع بمبادئ الفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي. وفي هذا الصدد يذكر عبد القادر شرشار بأن هذه الترجمة « قد اكتشف من خلالها القارئ الفرنسي مفكرا عربيا أصيلا، تكمن قوة شخصيته في الرؤية الخلافية للمنظور اللاتيني للفلسفة والمنطق، من خلال المزاوجة التي أقامها الأمير بين شروط المنطق ومتطلبات الدين الإسلامي، منتهيا إلى أن الديانات الثلاث تنبع من معين واحد، وأن رسالة الأنبياء والرسل لم تكن تهدف إلى تقويض المعرفة العلمية والفلسفية بل جاءت في مجملها لتكريس حرية الإنسان المتمثلة في التسامح والحب والتعاون بين الشعوب ».[8]

بعد هذه الترجمة ، زادت مكانة الأمير عبد القادر في أعين الطبقة المثقفة بفرنسا ، وأصبح اسمه على لسان الصغير والكبير، وكتبت عنه الصحف الباريسية في الصفحات الأولى من الجرائد، وأعجب بشخصيته الجمهور الفرنسي الذي كان يرى فيه قبل ذلك الرجل الثائر

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

العدو الذي وقف في وجه فرنسا. غير أن هذه الأخيرة تفطنت بسرعة لهذا الأمر، ورأت أن إقبال الجمهور الفرنسي على قراءة فكر وثقافة الأمير قد يهدد سياستها الاستيطانية في الجزائر، فسارعت إلى سحب وإخفاء رسالة الأمير، وكذا ترجمة غوستاف دوغا، إلى أعاد ترجمتها رونيه خوام* سنة 1977 وعنونها بـ رسالة إلى الفرنسيين – Lettre aux français .

وفي الأخير، لا يسعنا إلا أن نقول بأن ما خلفه الأمير عبد القادر من كتابات في منفاه ما هي إلا دليل آخر على عظمة هذه الشخصية، وغيرها من الشخصيات التي حملت مشعل مقاومة الاستعمار الفرنسي في بداياته وجوده بالجزائر. وإذا كانت هذه الرسالة توحي للقارئ بشيء من البساطة في التعبير والاختصار في المعاني، فإن ما لحقها من كتابات أخرى كان موضعه الحزم والجد ككتاب المواقف الذي كان بمثابة العصارة الفكرية الروحية لحياة الأمير عبد القادر الجزائري.

الإحالات:

[1] - ناصر الدين سعيدوني ، عصر الأمير عبد القادر الجزائري ، مكتبة الإسكندرية ، مصر ، 2000 ، ص 155 .

[2] - شارل هنري تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة أبو القاسم سعد الله ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ص 35.

* - غوستاف دوقا (Gustave Dugat) كاتب ومستشرق فرنسي ولد سنة 1824 في أورلنج بضواحي باريس ، درس في مدرسة اللغات الشرقية وتخصص في دراسة الفكر الإسلامي خاصة ما وجد في شمال إفريقيا، وسافر إلى الجزائر سنة 1845، ثم كلف في سنة 1982 بتدريس تاريخ وجغرافية الشعوب الإسلامية في مدرسة اللغات الشرقية، توفي في محافظة لوفار الفرنسية سنة 1894.من أهم مؤلفاته :

- دراسة في كتاب زاد المسافر لأبي جعفر أحمد .
- سند الراوي في الصرف الفرنسوي .
- الملك النعمان أيام سعده وأيام نحسه وهو مستخرج من قصة عنتره.
- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري.
- تاريخ المستشرقين في أوربا.

للمزيد أنظر : عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، يوليو 1993، الطبعة الثالثة ، ص 253.

[3] - للمزيد أنظر : عمار طالبي ، الأمير عبد القادر ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ن دار القصبة للنشر ، 2005 ، ص 05 .

[4] - المرجع نفسه ، ص ص 06 ، 07 .

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

[5] - شارل هنري تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة وتقديم أبو القاسم سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982 ، الطبعة الثانية ، ص 265.

[6] - رابح بونار ، الأمير عبد القادر حياته وأدبه ، مجلة آمال ، عدد خاص عن حياة الأمير عبد القادر ، جويلية 1970 ، الجزائر ، ص 22.

[7] - عمار طالبي ، المرجع نفسه ، ص ص 11 ، 12.

[8] - عبد القادر شرشار ، شخصية الأمير عبد القادر من منظور الآخر-ترجمة كتاب عبد القادر لغوستاف دوقا أنموذجا ، مجلة إنسانيات ، العدد 19-20 ، جانفي – جوان 2003 ، ص 22.

[*] - رنيه رزق الله خوام (1917 – 2004) كاتب ومترجم فرنسي ولد في حلب من عائلة سورية مسيحية ، ترجم العديد من المخطوطات العربية الكلاسيكية كألف ليلة وليلة سنة 1986